الأدب العربي وأنموذج النص التفاعلي

أ. ناصر بركة
قسم:اللغة العربية وآدابها
جامعة:محمد بوضياف - المسيلة

ملخص الدراسة:

لاشك في أن النتاج الإبداعي العربي يحمل بداخله سر خصوصيته التي حفظت له كينونته ولا تزال فامتلك أصالة لغوية تواءمت مع فضاءات ابستيمولوجية لها سلطانها ومركزيتها، نتاج ظلّ يرتحل عبر الأزمنة كاشفا عن جمالياته حتى وإن تبدلت طرائق عرضه من المكتوب إلى الشبكي المقروء عبر وسائط على درجة كبيرة من التعقيد، لذا فلا مناص من اعتماد ثنائية النشر لما تتيحه من ازداوجية الرواج في حواضن مختلفة عبر أرجاء المعمورة، محققا مجالا أوسع للذيوع المتفاعل وهنا يتقاطع جهد الطباعة الورقية مع الإخراج الشبكي، فإن تمّ التكامل بين هذين التوجهين حُقّ للأدب العربي أن يجسد ما يرنو إليه.

مدخل منهجي

إنّ مُعطى استقراء التاريخ الأدبي ليدعو صراحة إلى استكناه طبيعة الأنساق المعرفية التي احتضنت الإبداع الأدبي العربي تحديدا، فأحالته عنصرا له وجوده، بما له من مضامين موصولة بثقافة أصل غذّت مستوياته وأغنت مفاهيمه، فاستوى على سوقه فاسحًا لقرائه إمكانية تأويله وتفعيل مكوناته.

ومما لاشك فيه، أنّ هذا الفعل الإبداعي العربي، بنتاجه المتجلي عبر مراحل التاريخ، أضحى محل مراجعات قرائية لموروثه محاولةً للغوص في دواخله حتى تبتعث فيه روح التجدد مسجاة بواقع العصر؛ لتتواءم موضوعاته مع مسارات شكلت ولاتزال هَمّا معرفيا ضاقت . خلاله . حدود الرؤيا وانحصرت فتشرذمت جهود البحاثة في غياب التوافق المنشود الذي بدا للوهلة الأولى فاقدا لحضوره، وهو ما أفرز نوعا من غربة الرأي، وسط تكتلات فكرية لم يكن من دواعي ظهورها إلا الخوض في طرح مشاريع بحثية بمنأى عن فهم جوهر العلاقة التي تربط القديم الرافد بسياقاته المختلفة.

بيد أن إعادة القراءة تلك تبقى بحاجة إلى وضوح الباعث على إحياء التراث الأدبي؛ إذ هو ليس بمعزل عمّا طُرح من إشكالات تراه جزءا حيويا من حركية الأنساق الثقافية، مقرونةً بسؤال ملحاح يخص الدور الوظفي للقراءة البديلة كيف تكون وعلى أي أساس تُبنى؟ فقد بدا ضروريا الإشارةُ إلى طبيعة هذا التعامل من حيث صلته بمعطيات مؤثرة ماثلة في التحولات الإبستيمولوجية حديثا؛ إنها قراءة لا تُحمّل النصوص ما لاتُطيق، ولا تُصدر أحكاما سلطوية مفتقرة إلى أدلة معطاءة قد تفيد الذائقة بكيفية اشتغال النص التراثي ومرجعياته الفاعلة، التي تُبقي العقل الحصيف حريصا على إبراز ما لها من أهمية في إثراء منظومة حياتية لها خصوصياتها، على أن آلية التعامل تلك لا تلغي بمقارباتها وجود النص ذاته كمنجز اصطبغ بمسحة ماضوية، بل أجلّ ما بالإمكان أن ترومه هو نشدان الحقيقة، الحقيقة بأبعادها الجمالية اللامتناهية حتى وإن توسمت بمبدإ الشك المنهجي وسيلة للدراسة والتحليل؛ لتُحيل التجارب الإبداعية السابقة عنصرا حيا دالا على مدى قابلية تمددها واكتسابها آفاقا تتحرك في فلكها، تأثيرا وتأثرا، فيتحقق للنصوص وجودها باعتبارها كيانا

باحثا عن حضوره الذي تقاسمته وجهات النظر؛ إعجابا إلى حد التقديس تارة أوتبرما منه ونفورا تارة أخرى، وهنا يتأكد تموقعه "داخل مسار متصل واحد يمتد أفقيا ما بين قطبين أوزمنين أورؤيتي عالم متوازيتين لا تخلو كلتاهما من جذور الغواية نفسها"[1].

كأنّ المرء إزاء رغبة يغذيها وازع الشعور بالانتماء؛ وسطوة الرضوخ لأحادية الأحكام وقد رُهن فحواها في إسار العاطفة بعيدا عن صرامة العقل ما دام أنه الفيصل في ترجيح رأي عن آخر.

إنّ عملية تطويع التراث الأدبي قائمة على استنطاق صوامته، وتحريك سواكنه حيث إنّ العلاقة بين عناصره المكونة تُغذيها روح الفرادة والتميّز، كما يغدو انفتاحه على الآخر ملمحا من ملامح تفاعله؛ لتتأكد قيمة هذا الانفتاح في مدى تغيير معالم حركية الفكر الإنساني، فيكون إسهامه مرنا لا يلغي قراءات الآخر ولا يقصي رؤاه، فتقع إذ ذاك في فخ الأحكام القبلية غير المؤسسة، بل تتموقع ضمن كلية الأنساق المعرفية حقّا، إلى الحدّ الذي تتداعى فيه كثير من المعطيات ذات الصلة بقصور النظرة وسلبية التوجه، فما من حظ لتراث أدبي يبتغي الانكفاء ويأبى التحاور مع موروث الحضارات المجاورة كما هو في حواضنه البكر.

إذًا، وتأسيسا على ما سبق، يمكن تبيّن الدور الهام لهذا المخزون الفكري، بصناعة وعي يحرره من رتابة فرضها واقع الحال وبُعد الشقة الزمنية؛ فلم يعد يساير دينامية الحاضر مثلما تتجلى بصماتها في حيوات الأفراد، وما بعثه إلا إعادة استقصاء لمضامينه ومحاولة استلهام أبعادها، بعد أن توارت خلف حُجب الأزمنة المتعاقبة.

و بذا تبرز قيمة المقروء حضاريا كونه لا يعكس تفكير أمة ما فحسب؛ ولكنه جهد فعّال وليس "إنتاجا اغترابيا بل امتدادا عضويا، ليس إفرازا مجمدا بل إبداعا محولا"[2].

ومن نافلة القول في هذا الصدد، التنويه بوسيلتين هامتين يمكن أن تكونا مكملا لصرح هذا الإبداع المحول؛ أولاهما إدراك ما لدُور النشر والترجمة من أثر بالغ في التعريف بمقروء الأمة الثّرّ، ليتواشج ذلك مع جهود الأكاديميين المُنصبّة في اتجاه إيجاد حواضن تُحقق له الإشعاعية والذيوع، وثانيهما ضرورة الاستفادة من كشوفات العصر الحديث وما واكبها من تطورات تكنولوجية فائقة الدقة، مسّت عوالم الاتصالات والحواسيب ووسائل تخزين المعلومات وتقنيات شبكية جديدة؛ فيغدو نتاجا مستفيدا من وساطة ترويجية محورها آلية النص التفاعلي، حينها ينتفي عنصر القصدية لدى المتصرف في النص المكتوب؛ إذ تُبنى نظرته على شيء موجود أصلا، لم يتسنّ له التمظهر إلا اعتمادا على الطباعة الورقية، في وقت كانت فكرة الوسائط الإلكترونية حلما إيطوبيا لمّا يتبلور بعد، ويُوسم هذا الأدب، الذي يتكيّف مع منجزات العقل البشري، بالأدب المنقول من الخطي إلى الضوئي.

وبالمقابل يتوفر النص التفاعلي غير المنقول على عنصر القصدية؛ بمزاوجة صاحبه بين معرفة التقنيات الحاسوبية ومستوى ثقافي خاص، يستوعب كيفية تغيّر بنية العمل الأدبي وطرائق نشره، ومالنشر إلا "استرجاع وعرض وإدخال وتبادل المعلومات إلكترونيا عن طريق الشبكات، مثل الإنترنيت(internets)، أوعن طريق الوسائط(multimédia)"[3].

لكن هل غاية ما يرنو إليه النقد الأدبي في هذا الخضم هو الوصول بالأعمال شعرية كانت أم نثرية إلى آفاق النص التفاعلي كأنموذج طموح؟ ألا يفقدها ذلك وميضها الجمالي فتستتر وراء حجب الآلة ونظمها المتطورة؟

الأدب العربي وفاعلية الإخراج الشبكي:

لا يُجافي الباحث صوابا إذا وصل مثل تلك التطورات بصدى ثورة معرفية صيّرت العالم قرية صغيرة؛ تعولمت فيها كثير من المفاهيم والمشاريع الحضارية بسبب معطيات أسست "لمعظم التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتلاحقة، والتي تميّز هذه اللحظة التاريخية الراهنة؛ الثورة العلمية التكنولوجية التي جعلت هذا العالم أكثر اندماجا"[4]، وأسرع حركية.

إنّ تحسّس امتداد الأدب العربي اليوم، ضمن هذه التجاذبات المؤثرة، دال على تشكيل فني بترسبات تراثية لغويا على الأقل، ومؤشر على محاولة تموقع وإعادة توجيه لمستويات تشكيله الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية؛ لتنصهر في جسد النص نفسه "روافد فردية واجتماعية ونفسية وأيديولوجية ولغوية وآنية وزمانية، كما أن علائقه الباطنة والظاهرة بمجمل السياق الثقافي للأمة ماضيا وحاضرا يتشاجن ويتشقق بعضها من بعض"[5]، وكل خصيصة مُتضمَّنة فيه . بوصفه إبداعا. تُعد محصلة قراءة واعية تصل الداخل بالخارج ومساحة تذوي معها الفواصل بين ماهو سياقي وماهو نسقي، ليظهر عمق ارتباط المعالجة المضمونية بما يحفها من معالم يستقي منها الأديب تجربته الإبداعية، ضاربا مع القارئ موعدا كي يستنطق دلالاته ويفسر رموزه.

ولا ريب في أن موجد النص كتابةً ومُثريه قراءةً لا ينفصمان عن واقع متقلب، أثبت قابليةً لتطبيق النظريات العلمية؛ كان من أهم تجلياتها "ظهور شبكات النقل السريع للمعلومات التي تتخذ من المعلومات الاتصالية (informatique communicante) نمطا جديدا في تبادل[المعارف] بين الأفراد والدول، وهذا انطلاقا من الإدماج بين الإعلام الآلي والبنى التحتية للاتصالات"[6].

لقد أتاحت هاتيك التحولات بعثا متجددا للممارسة الإبداعية، وهامشا أكبر للحرية الذاتية، "بوصفها فعلا من الأفعال التي تعبر عن أنطولوجيا...وهي بهذا تشترك مع الإبداع في كونه فعلا . أيضا. ينتقل من الإمكانية إلى الوجود"[7].

و في ذلك إثبات لحقيقة لا يمكن إغفالها؛ مؤداها أن الكتابة ممارسة لعملية تستدعي هيمنتها وتحقيق تألقها الخاص نوعا من فك الارتباط بمنغصات التجربة الإبداعية، ولعل إدراك طبيعتها، باعتبارها كيانا ينم عن قيمة وجودية، يؤكد أن أُسّها قائم على الحرية التي "ليست أمرا فرديا وإنما هي مسألة اجتماعية لها مظاهرها السياسية والاقتصادية والنفسية والخلقية...تتحرك في حدود الممكن؛ أي في حدود القدرة الذاتية على العمل وفقا لمقتضيات العقل"[8].

ويتبدّى هذا النوع من الحرية. أيضا. عند قارئ خاص؛ يكون تصفحه للنص التفاعلي/الأنموذج تصفحا موصولا بتركيبة الآلة وميكانيزماتها الداخلية؛ إنه قارئ إلكتروني وطرف أساسي من منظومة مجتمع الإنترنيت والأقراص المضغوطة التي تمنحه شغف اختيار ما يراه ويسمعه، ويبقى إبحاره في العوالم الشبكية مشروطا بمدى إلمامه بنظام النوافذ (système de Windows)، وفهمه مفاتيح الوصول إلى النص واستيعابه تفاعل مؤثرات الصوت والصورة فيه، وما تتيحه تقنية الإخراج الشبكي من وسائل عرض على الشاشة، تجعل من هذا الأنموذج النصي بديلا لا يُميّز بين قرائه، بغضّ النظر عن انتماءاتهم وأجناسهم فرادى كانوا أم جماعات، إنه المؤشر على لا نهائية النص.

لكن ألا يُحوّل انفتاحُ النص التفاعلي النتاجَ الأدبي بخصوصياته العربية المائزة إلى كيان باحث عن هويته مفتقد لمعالمه المتأصلة؟

لقد كان انفتاح مثل هذا النوع من النصوص مظهرا من مظاهر التفاعل بين الإبداع والمعلوماتية؛ وظاهرة أدبية ذات مرجعية متجسدة في المضامين النصية نفسها؛ ليدل ذلك على أن التحول من المكتوب الخطي إلى المقروء الشبكي إنما يَمسّ شكل عرض النصوص لا جواهرها، رغبة في الاستفادة من عالمية النُظُم البرمجية ولغتها المرقمنة الموسومة بدقتها ومنطقية متتالياتها العددية، فأضحت مثار اهتمام مؤسساتي، له سُلطة نزّاعة إلى قانون السوق القائم على فكر تجاري يغذيه العرض والطلب.

وتلك صورة تسنح بمدّ حدود النص؛ فينأى عن سلطة كاتبه المركزية وقيود الكتابة الورقية، لتتاح له إمكانات تجديد شكله بطريقة تشد ألباب الذائقة إلى مكنوناته، حتى لا تبقى تائهة على الهامش.

وبناءً على ما سبق، فإن علاقة الأدب العربي بالحياة المتجددة في أنماطها الواقعية مؤشر على التواشج الفني بين الأثر والمتغير من جهة وعلى التلاقح بين الرؤيا والراهن من جهة أخرى؛ إذ تتشكل التراكمات السياقية ضمن أطر لغوية لها مستوياتها المتحققة في أشكال بنائية كان لها حضورها النصي الإلكتروني دون أن يكون ذلك حائلا أمامها كي تحافظ على أصالة مرجعياتها؛ بما تملكه من خصوصية وعناصر جمالية تتواءم وفضاءات ابستيمولوجية لها سلطانها ومركزيتها وتأثيرها في تحوير وجهته من المكتوب الخطي إلى الشبكي الضوئي، بحثا عن النص الأنموذج/المثال عبر وسائط معقدة.

لذا، وتعميما للذيوع، يبقى للطباعة الورقية أفضالها ولتكنولوجيا الاتصالات حسناتها؛ التي تُمكّن من طرح بديل يعتمد بالأساس على ازدواجية النشر كي يتم التكامل ويتحقق الرواج في حواضن مختلفة عبر أرجاء المعمورة.

هوامش الدراسة:

1. جابر عصفور: غواية التراث، ط1، وزارة الإعلام. مجلة العربي، الكويت، 2005، ص12.
2. إدوارد سعيد: العالم، النص، الناقد، ترجمة: فريال جبوري غزول، مجلة فصول، ديسمبر 1983، ص191 .
3. مجموعة من الكتاب: حضارة الحاسوب والإنترنيت، عنوان المقال: النشر الإلكتروني العربي، بقلم: قصي إبراهيم الشطي، مجلة العربي، الكويت، 2000، ص194.
4. بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة رؤية نقدية، مجلة كتاب الأمة، قطر، العدد86، 2002، ص63.
5. سعد عبد العزيز مصلوح: في النقد اللساني، ط1، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، د/ت، ص 230.
6. ط عبد الحق: مدخل إلى المعلوماتية، ط1، ج2، قصر الكتاب، الجزائر، 2000، ص01.
7. زكريا إبراهيم: مشكلة الحرية، مكتبة مصر، القاهرة، 1971، ص30.
8. حسام الخطيب، رمضان بسطاويسي: آفاق الإبداع ومرجعيته في عصر العولمة، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2001، ص64.